

فقهاء بيت ابن الإمام ومكانتهم العلمية في تلمسان الزّيانِيّة
Ibn El Imam Family Jurists and their scientific rank in Zianid
Tlemcen

صص 154- 167

د. مليكة عدالة - Addala Malika

البريد الإلكتروني: addalamalika4@gmail.com

تاريخ استقبال المقال: 2019/09/22 تاريخ المراجعة: 2020/09/23 تاريخ القبول: 2019/09/24

ملخص: كانت تلمسان كغيرها من حواضر العالم الإسلامي في مختلف العصور تزخر بنشاطها الثقافي والعلمي؛ إذ ظهر في هذه المدينة العريقة إسهامات فكرية لكثير من البيوتات العلمية: الصغرى والكبرى التي طوّرت الحياة الفكرية والدينية بتلمسان منها: بيت ابن الإمام الذي يعدّ من أشهر البيوتات التي نبغت في ميادين العلوم، وتخصّصت في مجال الفقه خاصة، وتركت إرثا حضاريا، فحمل أبناء هذا البيت على عاتقهم العلم، وطوّروا معارفه، وامتازوا بحافظة قوية اعتمدوا عليها في دراسة علم الفقه وأصوله، وعملوا على تدريسه، فتبوؤوا بذلك منزلة رفيعة ومكانة عالية عند سلاطين بني زيان الذين شجّعوا العلم والعلماء، وجعلوا مدينتهم مركزا يؤم إليها العلماء والفقهاء من كل حدب وصوب.

أنجبت أسرة ابن الإمام التلمسانية مشاهير الفقهاء الذين توارثوا العلم أباً عن جدّ، وساهموا في رواج الحركة العلمية، وذلك من خلال مناظراتهم العلمية التي كانوا يحيونها في بلاط الحكّام، وبإدخالهم لكتب علمية نفيسة إلى بلدهم، ومن خلال رحلاتهم العلمية التي قادتهم إلى بلاد المشرق والمغرب لطلب العلم والاستزادة منه، وتصديهم للتدريس والإفتاء، فكان دورهم العلمي بارزاً في تلمسان الزّيانِيّة. الكلمات المفتاحية: تلمسان الزّيانِيّة- حكام بني زيان- البيوتات العلمية- بيت ابن الإمام-الفقه- المناظرات العلمية- المجالس العلمية- الرحلات العلمية- الاستشارة- الكتب العلمية.

Abstract: Like other Islamic cities, Tlemcen was rich of its cultural and scientific activities. This ancient city has seen many small and major scientific

houses which stimulated the intellectual cultural and religious life in Tlemcen over the centuries. Among these small houses, Ibn El-Imam's house which is considered to be the most famous scientific house which spread in the domain of science and specialized in jurisprudence mainly. So, the sons of this house took it upon themselves and developed its knowledge.

They were characterized by strong memory in which they relied in the study of the principles of Islamic jurisprudence through which they got a high status in the sultans of Beni Ziane who encouraged science and scientists. They also made their city a centre for scholars and jurists from every direction. The Tlemcenian family of Ibn El-Imam gave birth to the jurists who inherited the science from grandfather to father.

So, they contributed to the promotion of scientific and cultural movement in Beni Ziane era through their scientific debates in the court of government. They also brought scientific books of an important value to their countries via scientific trips that led them to the countries of the East and the West to seek science and evolve it as well as to take science from the Imams of there. Hence, they introduced Oriental books and directed the movement of authorship to El-Imam. So, their scientific and their position were prominent in Tlemcen Zayani.

Keywords: Zayani Tlemcen- Beni Ziyane rulers- Scientific houses- Ibn El Imam house- Jurisprudence- Scientific discussion- Scientific assemblies Scientific trips – Reference- Scientific books.

مقدمة: شهدت مدينة تلمسان نهضة علمية زاهرة؛ فنمت حتى غدت حاضرة علمية،

ومركزا مستقطبا لطلاب المعرفة، وشغل العلم اهتمام الكثير من أهلها.

كانت الحياة العلمية في تلمسان حافلة بالإنجازات التي حققها العلماء، وشمل إنتاجهم الثقافي مجالات علمية شتى، وفي ميادين معرفية متنوعة غلب عليها الطابع الديني، فانتسع نطاق البحث في مجال الفقه الذي توسع العلماء فيه دراسة وإبداعا وقدّموا إنتاجا غزيرًا؛ ما جعل دائرة العلوم الدينية تتسع، ويظهر نشاط البيوتات العلمية الصغرى في تلمسان، ومنها "بيت ابن الإمام" الذي يعدّ من أشهرها علمًا وأرفعها مكانة، وقد أولى علماء هذا البيت عناية بالغة لدراسة العلوم الدينية، واجتهدوا في تعلّمها، واحتملوا عناءها بالرحلة مشرقا ومغربا لتحصيلها.

وعليه فإنّ هذا المقال يهدف إلى الإجابة عن مجموعة من الأسئلة: مَنْ هُمْ أفراد بيت ابن الإمام الذين نبغوا في ميادين العلوم؟ وما مجالات العلوم التي تخصصّوها فيها؟ وما مدى إسهامهم في رواج الحركة العلمية بتلمسان الزيانية؟ وكيف

كانت تتمّ المناظرات العلميّة التي أحيّاها علماء هذا البيت في مجالسهم العلميّة التي شهدها بلاط الزّيايين؟.

وللإجابة عن هذه التّساؤلات اتّجهت أنظارنا للبحث عن بيت ابن الإمام لإبراز إسهاماته العلميّة في المدينة، ولتّقف أيضاً عند رحلتهم إلى المشرق، ومناظراتهم العلميّة، ومجالسهم القيّمة في بلاط الزّيايين.

1- بيت ابن الإمام بمدينة تلمسان: شهدت الحاضرة العلميّة تلمسان حركة علميّة واسعة كشفت عن وجود علماء نبغوا من بيوتات علميّة كبرى وأخرى صغرى، وكان لهم باعاً طويلاً في ميدان الفقه منها بيت ابن الإمام.

التّعريف بأسرة ابن الإمام: ورد ذكر أفراد بيت ابن الإمام في المصادر التّاريخيّة بأبناء الإمام¹ أو ابنيّ الإمام²، وهما: عبد الرّحمن أبو زيد، وشقيقه عيسى أبو موسى، ابني الإمام العالم الفقيه الخطيب محمّد بن عبد الله؛ أحد أئمّة مساجد برّشك من أعمال تلمسان³، ويخبرنا يحيى بن خلدون أنّ جدّهما عبد الله ابن الإمام من أولياء الله الأبرار⁴ اشتهر بالإمام، وعُرف بهذه التّسميّة، وتوارث أبناؤه من بعده إمامة الصّلاة⁵ التي يصفها العلّامة ابن خلدون "بأنّها من أرفع الخطط الدّينيّة"⁶.

أنجبت أسرة ابن الإمام مشاهير الفقهاء خلال أجيال متتابعة توارثت العلم والفقه ابتداءً عن أب، وورد ذكرُ لأربعة فقهاء من هذا البيت هم: الأخوان عبد الرّحمن وعيسى ابني الإمام محمّد بن عبد الله ابن الإمام، وإبراهيم بن عبد الرّحمن وابنه محمّد، والأكيد أنّ ظهور النّشاط العلمي لهذا البيت كان وراءه عوامل عديدة.

2. عوامل رواج علم الفقه في تلمسان: لا شكّ في أنّ رواج الحركة العلميّة والثّقافيّة، وظهور العلماء بتلمسان كان نتيجة استراتيجيّة عمل مُحكّمة انتهجها السّلاطين، وعوامل متعدّدة نوجزها فيما يلي:

1.2- تشجيع الحكّام للعلم والعلماء: تناولت دراسات تاريخيّة كثيرة دور حكّام بني زيّان في تشجيع العلماء، واستقدامهم إلى البلاط وإكرامهم⁷، حتّى صارت تلمسان تستقطب أساتذة العلم وطلّاب المعرفة، وغدت بلاطات الحكّام أماكناً للاجتماعات الفكرية، حيث يقول ابن خلدون: "ولم يزل عمران تلمسان يتزايد، وخطّها تتسع

والصّروح بها بالأجر والقرميد تتعالى، وتُشاد إلى أن نزلها آل زِيّان، واتّخذوها دارًا لمُلْكِهِمْ، وكُرْسِيًّا لسلطانهم، فاختطّوا بها القصور المؤنّقة، والمنازل الحافلة؛ فأصبحت أعظم أمصار المغرب، ورحل إليها النّاس من القاصيّة، ونفقت بها أسواق العلوم والصنّائع؛ فنشأ بها العلماء، واشتهر فيها الأعلام، وضاهت أمصار الدّول الإسلاميّة والقواعد الخِلافيّة⁸.

وشهدت تلمسان في عصر بني زِيّان حضورًا متزايدًا في ميدان العلم، وغزارة في الإبداع الثّقافي؛ هذا فضلًا عن دور الحكّام في دفع عجلة التّعليم نحو الأمام، وذلك ببناء مدارس التّعليم كتلك التي بناها أبو حمّو موسى الزّيّاني الأوّل سنة 710هـ- 1310م⁹؛ إذ يُذكر أنّها كانت أوّل مدرسة بُنيّت بالمغرب الأوسط، وكانت اللّينة الأولى لبعث الحركة العلميّة بتلمسان¹⁰.

واعْتُبرت هذه المدرسة تُحفّة فنيّة رائعة تقديرًا منه لفضل العلماء الدّين قرّهم إليه، وهم بدورهم تغنّوا بفضله ومحاسنه، وتُعرف هذه المدرسة بـ"المدرسة الجديدة"، وهي المدرسة الثّانيّة، والتي لا تزال أفخم مدرسة بالمغرب الأوسط¹¹.

2.2 أثر الرّحلات العلميّة في تحصيل علم الفقه: إنّ الدّارس للحركة الفكريّة في تلمسان يلاحظ نشاط الرّحلات العلميّة التي كانت إحدى المظاهر الحضاريّة التي برع وتخصّص فيها العلماء في تلك الحقبة، وذلك في سبيل تحصيل العلوم والمعارف، وقلمًا نرى عالما من علماء تلمسان لم يرتحل إلى المشرق، ويأخذ عن علمائها عدا عددًا قليلًا منهم.

وكانت الرّحلة إلى المشرق محطّ أنظار طلبة العلم الدّين سعوا للقاء العلماء والأساتذة منهم، ونوّه ابن خلدون إلى ضرورة الرّحلة لطلب العلم بقوله: "لا بدّ له من الرّحلة في طلبه إلى الأمصار المستبحرة"¹²، فتعدّدت بذلك الأسباب التي شدّت الكثير من العلماء، ودفعتهم إلى الرّحلة، ولعلّ طلب العلم والاستزادة منه عن أئمّة الدّين والفقه كان أحد العوامل الرّئيسة، إضافة إلى أداء فريضة الحجّ، وزيارة الأماكن المقدّسة كمكّة المكرّمة والمدينة المنورة؛ إذ كانوا يخرجون منها بعد أداء الفريضة إلى

أقطار العالم الإسلامي ليستفيدوا، ويُفيدوا خصوصاً إلى بغداد وقرطبة والقيروان التي كانت محطاً أنظارهم والمنبع الأصيل لطلب العلم، والأخذ عن علمائها. أخذ أفراد أسرة ابن الإمام عن علماء بلدتهم، ولما تشبّعوا بعلوم شيوخهم كان لا بدّ لهم من الرّحيل إلى تونس لطلب المزيد من العلم التّافع من علمائه، والعودة إلى الوطن ثانية مزوّدين بما يفيد تلمسان، وفي هذا الشّأن يذكر ابن مريم أنّ الأخوين عبد الرّحمن ابن الإمام وشقيقه أبو موسى "رحلاً في شبابهما من بلدهما برّشك إلى تونس؛ فأخذا عن ابن جماعة وابن القطّان والبطروني وتلك الطبقة، وأدركا المرجاني وطبقته من أعجاز المائة السّابعة، ثمّ وردا في أوائل المائة الثّامنة تلمسان على أمير المسلمين أبي يعقوب"¹³.

ثم رَحَلَ الفقيهان إلى المشرق في حدود 720هـ/1320م؛ فلقيا علاء الدّين القونوي الذي يعتبر من أبرز أئمّة العلم والفقه ببلاد المشرق، كما لقيا أيضاً الجلال القزويني صاحب التّليخيص، وسمعا البخاري على الحجّار"¹⁴.

كانت هذه الرّحلة العلميّة التي قادت بيت ابن الإمام لأداء فريضة الحجّ، ومن ثمّ زيارة الأماكن المقدّسة، وطلب العلم منها، فلا غرو أنّ تكون رحلاتهم من أعظم الوسائل التي وطّدت الصّلات العلميّة بين المشرق والمغرب، وأكدت بوضوح مشاركة هؤلاء في الجانب الفكري، ومدى إسهامهم في ذلك التّواصل العلمي الذي كان قائماً بين الطرفين، من خلال التّقاء علمائهما، وأصبحوا بذلك حلقة اتّصال علمي وثقافي.

3. 2- أثر الهجرة الأندلسيّة: كان للهجرة الأندلسيّة إلى المغرب الأوسط الأثر الواضح في النّهضة العلميّة والثّقافيّة التي شهدتها المنطقة، من خلال إسهامات العلماء الوافدين، ودورهم في تفعيل الحياة العلميّة والفكرية؛ فقد وفد على تلمسان في هذه الفترة عدد كبير من العلماء الأندلسيّين بسبب سياسة الحكّام التي كانت تستقطب العلماء من جهة، وفرار هؤلاء العلماء بسبب غارات النّصارى الأسبان على المدن الأندلسيّة، وتوالي سقوط المدن الأندلسيّة في يد النّصارى الواحدة تلو الأخرى من جهة أخرى¹⁵.

ومن هؤلاء العلماء نذكر على سبيل المثال الفقيه العالم عبد الحق الإشبيلي المكنى بأبي محمد (ت581هـ/1185م) الذي غادر بلده إشبيلية عند الفتنة الواقعة بالأندلس¹⁶، واتخذ المحدث محمد بن عبد الرحمن بن علي التجيبي من تلمسان موطناً له، بعد خروجه من الأندلس، واستقر بها وعلم، وألف بها كتباً جلية، وتوفي بها سنة 610هـ/1213م¹⁷.

كما خرج الفقيه الكاتب أبو بكر بن خطاب الغافقي المرسي (ت686هـ/1287م) من بلده مرسية بعد أن ساءت واشتدت أحوالها، واستقر بتلمسان، واشتغل كاتباً عند سلطانها يحيى بن يغموراسن بن زيان¹⁸، وكان هؤلاء الوافدين من رجال العلم فقهاءً وكتباً وموظفين يشتغلون بالتدريس، وكونوا خلفاءهم من العلماء والأئمة، وشاركوا في التأليف، فتركوا تراثاً علمياً زاخراً¹⁹.

3- مساهمة أسرة ابن الإمام في مجال الفقه: عرف ابن خلدون علم الفقه بأنه "معرفة أحكام الله تعالى في أفعال المكلفين بالوجوب والحذر والنذب والكرهية والباحة، وهي متلقاة من الكتاب والسنة، وما نصبه الشارع لمعرفة من الأدلة؛ فإذا استخرجت الأحكام من تلك الأدلة قيل لها: فقه"²⁰، وقد تهافت العلماء على حواضر العالم الإسلامي من أجل دراسة علم الفقه لأنه من العلوم التي كانت توصّل أصحابها إلى الارتقاء لأعلى المناصب الإدارية في الدولة، ونيل الخطط الرفيعة كخطّة القضاء والشورى، واحتلّ هذا العلم مكانة هامة بين ذوي الشأن؛ فالفقيه كان يحظى بمكانة مرموقة.

درس أفراد أسرة ابن الإمام الفقه، وكان لهم دوراً متميزاً وفعالاً، وتأثيراً كبيراً في حياة المجتمع التلمساني، فازدهرت بهم علوم الدين، وظهر علماء تميزوا بالتساع أفقهم في الفقه، وكان لهم باعاً طويلاً فيه من أمثال العالم الفقيه الخطيب محمد بن عبد الله؛ أحد أئمة مساجد برشك؛ إذ أخبرنا يحيى بن خلدون أنّ جدّهما عبد الله ابن الإمام²¹ قد اشتهر بالإمام، وعُرف بهذه التسمية، وتوارث أبناؤه من بعده إمامة الصلاة²² التي يصفها العلامة ابن خلدون "بأنّها من أرفع الخطط الدينيّة"²³.

أنجبت أسرة ابن الإمام عددًا من الفقهاء خلال أجيال متتابعة، فاشتهر أبناء الإمام الخطيب محمد بن عبد الله بالعلم، وتخرج على أيديهم صدور العلماء ونجباء الأولياء، وبرز نشاط الأخوين الفقيهين العالمين أبو زيد عبد الرحمن، وأبو موسى عيسى اللذين بلغا مقام التدريس والعلم، والفُتيا والتّوازل²⁴، ونَبَغ من هذه الأسرة أربعة فقهاء هم:

1. 3- عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن الإمام؛ المكنى أبا زيد: لم تفصح المصادر التاريخية المطّلع عليها عن تاريخ ميلاده، وتذكر أنه توفي عام 743هـ/1342م، ورحل إلى العديد من حواضر العالم الإسلامي للتزوّد من علمائها، ووفد بعلم كثير منها، حيث كانت وجهته نحو تونس مع نهاية القرن 7هـ/13م للتزوّد بالعلم، واكتساب مختلف العلوم الدّينية عن أشهر علماء الفقه في تونس كالشيخ أحمد بن موسى البطروني وابن العطار، وأدرك المرجاني من أعجاز المائة السّابعة²⁵.

ورحل إلى المغرب، وتفقه على الإمام الفقيه الحافظ الشّيخ علي بن عبد الرحمن اليفرنى المعروف بالطنجي المختصّ في علم الفرائض والحساب؛ فاكسب علومًا كثيرة من رحلته، ثمّ كانت وجهته إلى بلاد المشرق سنة 720هـ/1320م لأداء فريضة الحجّ، وزيارة المسجد الأقصى، ومن ثمّ كانت الفرصة لملاقاة كبار مشايخ المشرق ومجالستهم، فانتفع بهم في مختلف العلوم؛ "إذ لقيّ علاء الدّين القنوي، وكان بحيث لا نظير له في الفُتيا، ولقي أيضًا جلال الدّين محمد بن عبد الرحمن القزويني صاحب التّليخيص"²⁶، وقاضي القضاة بالقاهرة، ويشير التّنبكي إلى أنّه "قد ناظر التّقيّ ابن تيمية فظهر عليه"²⁷.

كان العالم أبو زيد من أهل الفقه؛ بل عميد فقهاء تلمسان، و"شيخ المالكية بتلمسان العلامة الأوحّد" كما وصفه ابن فرحون المالكي²⁸؛ فذاعت شهرته مشرقًا ومغربًا حتّى وصفه التّنبكي بأنّه "الفقيه العلامة آخر صدور أعلام الغرب بشهادة الإنصاف شرقًا وغربًا"²⁹.

2. 3- الفقيه عيسى بن الإمام؛ هو أبو موسى عيسى بن محمد بن عبد الله العالم الفاضل الذي توفيّ في الطّاعون الجارف سنة 749هـ/1348م³⁰، والملاحظة الجديدة

بالتسجيل أنّ عيسى وعبد الرحمن الشّقيقين كانت رحلتهما إلى المشرق والمغرب معا، فكثيرا ما أشارت المصادر التاريخيّة إلى المسار العلمي الذي نشأ عليه الأخوان ابني الإمام، ورحلتهما الطويلة مشرقا ومغربا من أجل تحصيل العلم، حتّى وصف العلامة الفقيه عيسى ابن الإمام "بخاتمة الحُفاظ بالمغرب"³¹.

3.3- الفقيه إبراهيم بن عبد الرحمن بن الإمام التلمساني: هو ابن شيخ الإسلام الإمام العلامة المجتهد أبو زيد عبد الرحمن بن الإمام نزيل فاس، الفقيه الحافظ الحجّة المشارك المتفنّن، له علوم جمّة، ونوازل في الفقه المالكي³²، وفتاوى نقل عنها الونشريسي، والمازوني في فتاويهما، توفّي بفاس عام 797هـ/1394م³³.

3.4- الفقيه محمّد بن إبراهيم بن الإمام أبو الفضل: ابن محمّد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن محمّد المتوفّي عام 845هـ/1441م³⁴، وُصف بالإمام الصّدر³⁵ المحقّق العارف، أحد أقران الإمام ابن مرزوق الحفيد، قال عنه التّنسي: "شيخنا صدر البلغاء، وتاج العارفين، وأعجوبة الرّمان، من بيت علم وشهرة وجلالة"³⁶.

نشأ الفقيه محمّد بن إبراهيم بتلمسان، وأخذ عن علمائها؛ فكان إماما علامة، محقّقا حجّة نظارًا، معاصرًا للحفيد ابن مرزوق، من بيت علم وشهرة وجلالة، وعلّت مكانة هذا الفقيه بدراسته لعلوم كثيرة، حيث وصفه المقرّي بأنّه صاحب فنون عقلية ونقلية، قلّ علّم إلّا ويشارك فيه مشاركة جيّدة³⁷، فصير في جملة الفقهاء بتلمسان، ونال من الثناء ما هو جدير به، حتّى نُسب إلى أهل الفقه في الدّين، وكان عالما بالمعقول³⁸، وعلامة زمانه بشهادة ابن مريم الذي يقول عنه: "الإمام العلامة، الحجّة النّظار، المحقّق العارف"، توفّي بتلمسان عام 843هـ/1493م³⁹.

4. مكانة فقهاء بيت ابن الإمام في تلمسان: نال فقهاء هذا البيت منزلة رفيعة خولتهم التّقرب من السّلطان، وتولّهم منصب الاستشارة، وربّما يكون هذا سببا في إقبال الكثير العلماء على دراسة الفقه، وتعلّم مسائله؛ ممّا أهلّ الفقيه أن يحظى بكلّ تقدير وإجلال، وأشاد المقرّي بذلك حين قال: "وممّن علّت منازلهم وسَمّت شخصياتهم هم الفقهاء، فاختار منهم الحكّام القضاة والخطباء باعتبارهم حلقة وصل بين الحكّام والعامّة، ومحلّ الثّقة والاحترام من كلّ الطرفين"⁴⁰، علما أنّ معظم الوظائف

والمناصب في الدولة كالقضاء والشورى والفتوى والإمامة كانت وفقاً على الفقهاء؛ لهذا تهافت العلماء على تعلّم الفقه بشهادة أحد المؤرخين حين يقول: "درس أبو محمّد عبد العزيز التونسي الفقه، ثم تركه لما رآهم نالوا به الخطط والعمالات"⁴¹.

إنّ المكانة التي تمتّع بها العلماء عامّة، والفقهاء بصفة خاصّة كانت نتيجة لتلك البيئة العلميّة التي عايشتها تلمسان، حيث حظي هؤلاء بالاحترام والتقدير من قبل عامّة الناس، كما حرص الأمراء على جعل عاصمتهم تلمسان قبلة للعلماء، وذلك بتشجيعهم العلماء باللجوء إليها، والاستقرار فيها، فإذا رأوا أنّ لهذا العالم أو ذاك شهرة علميّة شجّعوه على الحضور إلى البلاط.

وفي هذا الشأن تشير المصادر التاريخيّة إلى أنّ الأخوين ابني الإمام استقبلهما أبو حمّو موسى الأوّل (707- 718هـ/1308- 1318م)، وأكرمهما، وبني لهما أوّل مدرسة بالمغرب الأوسط سنة 710هـ/1310م⁴²، والتي تخرّج منها أكبر علماء تلمسان الذين درسوا عند الأخوين ابني الإمام علم الفقه وأصوله، وعلوماً أخرى مثل الشيخ أبو عبد الله بن إبراهيم الأبلي (ت759هـ/1358م)، وأبو عبد الله الشريف (ت771هـ/1370م)، وأبو عثمان سعيد العقباني (811هـ/1408م).

كان الأخوان عبد الرحمن وشقيقه أبو موسى مقربين من السّلطة، وحظيا بمكانة في البلاط؛ فكانا خصّيصين بالسّلطان أبي الحسن المريني على حدّ تعبير ابن خلدون، إضافة إلى شهرتهما في أقطار المغرب، بقول ابن مريم: "فاستدعاهما وقت دخوله، فأدنى مجلسهما، وزاد في تكريمهما، ورفع محلّهما عن أهل طبقتهما، وأجمل مجلسه بهما، وكان أبو موسى متبوّئ الكرامة، مُكرّماً موقّراً عالي المحلّ، قريب المجلس"⁴³.

عُرف أبو موسى بالإمامة والاجتهاد المطلق، حتّى وُصف بآخر فقهاء تلمسان⁴⁴، فأثر الحياة العلميّة، وظهر ذلك في مجال التّعليم والإمامة والخطبة والفتوى، كما برزت مكانته العلميّة في مجال المناظرات العلميّة.

5. إحياء أسرة ابن الإمام للمجالس العلميّة: أُخِيت أسرة ابن الإمام المجالس العلميّة التي كثيراً ما كان يُشرف عليها السّلاطين قصد تشجيع العلماء، و استقطابهم إلى

البلاط، وقد عُرِفَت الأسرة بالمناظرات العلمية أو المحاورات التي عَرَفَهَا العلامة ابن خلدون "بأنها الجدل، وهو معرفة آداب المناظرة التي تجرى بين أهل المذاهب الفقهية وغيرهم، فإنه لما كان باب المناظرة في الردّ والقبول متسعاً، وكلّ واحد من المتناظرين في الاستدلال، والجواب المُرسَل عنانه في الاحتجاج، ومنه يكون صواباً، ومنه ما يكون خطأ احتاج الأئمة أن يضعوا آداباً، وأحكاماً يقف المتناظران عند حدودها في الردّ والقبول"⁴⁵.

كانت تلك المناظرات أو النشاطات تجرى بين العلماء في مجالسهم، بفتح باب النقاش في مسائل علم الفقه، لاسيما في مسائل الخلاف بين المذاهب الفقهية، حتى عدّها البعض ضرورة لازمة لعلم الفقه، وبواسطتها يتمّ التوصل إلى الكثير من الأحكام الفقهية⁴⁶، فهي فرصة يتمكّن من خلالها العلماء من تبادل الآراء والنقاش حول أفكار معينة، وفي أصناف مختلفة من العلوم، وبخاصّة أصول الفقه، وهي الكتاب والسنة والاجتهاد، وبهذا برز فنّ المناظرة كأداة وقّرت الأرضية الملائمة للفقهاء لإثبات قدراتهم الفقهية، وفسحت مجال الاجتهاد، وباب النقاش أمامهم، وقد تفوّق أبناء الإمام في ذلك، حتّى أنّهم نافسوا علماء المغرب والمشرق، ومن تلك المناظرات نذكر:

5.1- مناظرة أبي زيد بن الإمام والإمام محمد المقرئ: كانت هذه المناظرة العلمية بين أبي عبد الله المقرئ التلمساني وأبي زيد عبد الرحمن بن الإمام في مجلس علي وفكري، بحضور السلطان ابن تاشفين بن عبد الرحمن⁴⁷، وقد أثارت مسائلًا فقهية حديثة، وهنا اعتُبرت المناظرة ضرورة لازمة لعلم الفقه، فأثرت المجال الفكري بحضور السلطان.

فضلا عن المناظرة العلمية التي كانت بين ابنه إبراهيم بن عبد الرحمن والشيخ الإمام محمد المقرئ التي أوردها الونشريسي في معياره قائلا: "ذكر القاضي أبو عبد الله المقرئ التلمساني- رحمه الله- أنّه شهد مجلساً بين يدي السلطان بن تاشفين عبد الرحمن بن أبي حمّو ذكر فيه أبو زيد ابن الإمام أنّ ابن القاسم مقلّد مقيّد النظّر بأصول مالك، ونازعه أبو موسى عمران بن موسى المشدالي، وادّعى أنّه مُطلق الاجتهاد، واحتجّ له بمخالفة لبعض ما يرويه أنّ يبلغه عنه لما ليس من قوله، وأتى من ذلك

بنظائر كثيرة..."⁴⁸؛ فهذا النص يوحي باهتمام الفقهاء بالمناظرات العلمية، ومناقشة مسائل فقهية، وإثراء المجالس العلمية بمسائل مفيدة بحضور الحكّام وأهل العلم، وتشجيع المنافسة العلمية.

5.2- مناظرة ابني الإمام مع العالم تقيّ الدين ابن تيمية: كانت المناظرات العلمية تتمّ أيضا مع علماء المشرق كتلك المناظرة العلمية التي كانت بين ابني الإمام والعالم الفقيه ابن تيمية حول مسائل متعلّقة بالدين، ويفيدنا التنبكي في هذا الشأن بأنّ الأخوين في رحلتهما إلى بلاد المشرق أخذوا عن علمائها الأجلاء، فكان لعبد عبد الرحمن وشقيقه عيسى لقاء مع الفقيه تقيّ الدين أحمد بن تيمية، من كبار الفقهاء المجتهدين، ويضيف المقري قائلًا: "ناظرًا ابن تيمية فظهر عليه"⁴⁹.

وهذا ما يدلّ على حماس الجو العلمي الذي كان يشرف عليه سلاطين بني زيان، بحضور العلماء الذين زيّنوا بلاطات الحكّام بمجالس دينية قيّمة، بفضل اضطلاعهم الواسع على أصناف مختلفة من العلوم، وعلى مناقب العلماء⁵⁰.

6- مكانة ابني الإمام في الاستشارة: يعدّ منصب الاستشارة من أهمّ المناصب الإدارية في الدولة الإسلامية، وقد حرص الحكّام على مجالسة العلماء والفقهاء لاختيار الفقهاء المشاورين منهم، وإسناد مهام الشورى لهم في القضاء والأحكام، وقد كان هذا المنصب مهمًا في تسيير أمور الدولة.

ساهم بيت ابن الإمام في تسيير الشؤون الإدارية بتلمسان؛ إذ تسمّى للأخوين عبد الرحمن وعيسى أن يتوصّلا إلى منصب الاستشارة، فقرّبهما الحكّام، وكنا بذلك زينة مجالسهم بشهادة ابن خلدون: "كان الفقيه أبو موسى مكرّمًا موقّرًا عالي المحلّ قريب المجلس من السلطان يستصحبه معه"⁵¹، ولا غرو إنّ كان السلطان أبو الحسن المريني كثير المجالسة للفقهاء ابني الإمام فاستدعاهما، وأدنى مجلسهما، وأشاد بتكريمهما، ورفع محلّهما على أهل طبقتهما، وصار يجمل بهما مجلسه"⁵².

وقد أدرك الحكّام مكانة هؤلاء الفقهاء، فكانوا يجالسونهم، ويستفيدون منهم، ويتباحثون معهم في أمور البلاد، ويستصحبونهم معهم إلى الحرب لمشاورتهم في الكثير من الأمور، وفي هذا الإطار يشير ابن خلدون إلى أنّ الأخوين رافقا السلطان أبا الحسن

الميرني إلى الغزو لمقاومة قوّات النّصارى في جزيرة طريف بقوله: "استنفرهما للغزو، وحضّرا معه واقعة طريف"⁵³، وبعد وفاة أبي زيد عبد الرحمن بقي أخوه أبو موسى يحظى بمكانة عالية مُتَبَوِّئًا ما شاء من ظلال تلك الكرامة⁵⁴.

7. إدخال ابني الإمام للكتب العلميّة: أثّرت الرّحلات العلميّة على التّبادل العلمي الذي قام أساسا على التّقاء العلماء بكبار الشّيوخ ومجالستهم للأخذ والعطاء، فأصبحوا حلقات اتّصال وتبادل فكري، وعلمي بين البلدين، وأتاح ذلك لفقهاء بيت ابن الإمام التّهل من علوم المشرق، وإدخال الكتب إلى بلاد المغرب؛ إذ يعدّ الفقيه محمّد بن إبراهيم ابن الإمام أوّل مَنْ أَدْخَلَ للمغرب شامل بهرام⁵⁵، وهو تصنيف في فروع المالكيّة، ويضيف التّنبكي أنّه "أدخل إلى بلاد المغرب غرائب الكتب، فكانت رحلته رحلة عناية وسَمَاع، وجمع كُتُب عام 845هـ/1441م، كما كان له قدم راسخ في البيان والتّصوّف والأدبيات والشّعر والطب"⁵⁶.

ولم يكن تحصيل العلم، والالتقاء بالشّيوخ في المشرق هدف كلّ العلماء المغاربة؛ بل انفردت فئة منهم بجمع الكتب النّفيسة، وإدخالها إلى بلاد المغرب؛ فكانت رحلة محمّد بن إبراهيم بن عبد الرحمن ابن الإمام رحلة جُمع للكتب، فأخذ عن أعلام العصر في مصر والقدس ودمشق، حتّى تراحم النّاس عليه هناك لفضله، وأجلوه⁵⁷، فاهتمّ اهتمامًا خاصًا بعلوم عدّة كالفقه والشّعر والطب والأدب⁵⁸، وعاد إلى تلمسان بعلم كثير، فمال النّاس إليه.

كما تميّزت أسرة ابن الإمام بحمّها لتصنيف الكتب، ويؤكد ذلك ابن مريم الذي أشار إلى أن "الأخوين عبد الرحمن وعيسى ابني الإمام لهما التّصانيف المفيدة والعلوم النّفيسة"⁵⁹، ويضيف المؤرّخ ذاته "أنّ العالم عبد الرحمن أبا زيد له تواليف منها شرح عظيم على ابن الحاجب الفرعي"⁶⁰، ولا يدري مؤرّخ كتاب البستان هل أكمله أم لا؟.

ويمكن القول أنّ مثل هؤلاء الفقهاء كانوا من مشاهير العلماء الذين زيّنوا البلاط، وملؤوه علما؛ فأحبّوا العلم، واهتمّوا به اهتماما شديدا، وسعّوا للرحلة إليه،

وجلبوا أمهات الكتب من المشرق، وهذا ما خلق بيئة سليمة لنهضة علمية بمدينة تلمسان.

خاتمة: ومن حصاد ما تقدّم ذكره خلّصنا إلى النتائج التالية:

- يعدّ فقهاء بيت ابن الإمام من أشهر البيوتات العلمية التلمسانية التي أنجبت علماء أفذاً ساهموا في إثراء الحركة الفكرية والدينية بتلمسان على عهد بني زيان.
- سخر أفراد أسرة ابن الإمام حياتهم لطلب العلم، فرحلوا إلى المشرق لطلبه من منابحه الأصلية؛ فاستفادوا وأفادوا، وجلبوا أمهات الكتب النفيسة إلى تلمسان.
- نبغ أبناء الإمام في التعليم والإمامة والفتوى، وفي المناظرات العلمية التي فتحت باب التدريب على الفتوى، والحصول على المهارات لتعلّم علم الفقه، وتعليمه للمتعلّمين إليه، وتنشيط حلقات الدروس والمناظرة.
- إنّ المكانة التي وصل إليها أفراد هذا البيت كانت نتيجة لإسهاماتهم الجليلة في مجال الفقه؛ فحازوا على مكانة مرموقة لدى الحكّام الزيّانيين الذين قرّبوهم إليهم، وشملتهم رعايتهم، وقد شهدت لهم كتب التراجم بتفوّقهم ومكانتهم العلمية.
- استطاعت أسرة ابن الإمام أن تُكوّن مدرسة تخرّج منها عدد كبير من علماء تلمسان الذين أصبحوا من بعدهم شيوخ عصرهم في علوم متنوّعة.

الهوامش:

- 1- ابن خلدون يحي بن محمّد أبو زكريا، بغية الرّواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ، تقديم و تحقيق و تعليق عبد الحميد حاجيات، المكتبة الوطنية، الجزائر، 1980، ج1، ص13. 2- ابن خلدون عبد الرحمن بن محمّد، رحلة ابن خلدون، علق على حواشيه، محمّد بن تاويت الطنجي، الطبعة الأولى، منشورات دار الكتب العلمية بيروت ، 2004، ص48. 3- نفسه، المصدر نفسه، ص47. 4- ابن خلدون يحي، مصدر سابق، ص130.
- 5- نصر الدين بن داود، بيوتات العلماء بتلمسان من القرن 7هـ/13م إلى القرن 10هـ/16م، أطروحة دكتوراه- جامعة تلمسان، 2009-2010، ص126. 6- ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، دار الجيل، بيروت، (د.ت)، ص493.
- 7- يمكن مراجعة التّسمي، محمّد بن عبد الله، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، مقتطف من نظم الدرر والعقبان في بيان شرف بني زيان-حقّقه و علق عليه محمّد أغا يوعيا، وزارة الثقافة، الجزائر، 2011، ص139/ هادي جلّول، الحركة العلمية في حاضرة تلمسان و عناية السّلطة الزّيانية بها(ق8-9هـ/14-15م)، الأكاديمية للدراسات الاجتماعية و الإنسانيّة، العدد 19، جانفي 2018، ص80/ مختار حساني، الأوضاع الاجتماعيّة و الاقتصاديّة للدولة الزّيانية 633-962هـ/1235-1554م)رسالة دكتوراه قدّمت بجامعة الجزائر 1985-1986، ص149/عبد العزيز فيلاي، تلمسان في العهد الزّيان، شركة النّشر والتّوزيع، الجزائر، 2002، ج2 ص317.
- 8- ابن خلدون، العبر و ديوان المبتدأ و الخبر في آيām العرب و العجم و البربر و من عاصرهم من ذوي السّلطان الأكبر(تاريخ ابن خلدون) اعتنى به أبو صهيب الكرّمي، بيت الأفكار الدّولية(د.ت)- ص1937. 9- ابن خلدون يحي، مصدر سابق ، ص189.
- 10- نصر الدين بن داود، مرجع سابق، ص31. 11- التّنسي، مصدر سابق، ص139. 12- ابن خلدون، المقدمة، ص481.

- 13- ابن مريم أبو عبد الله محمد الشريف، البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان، دراسة وتحقيق عبد القادر بويابة، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر، الجزائر، 2009، ص223. 14- نفسه، المصدر نفسه، ص224. 15- ابن الأبار، إبراهيم بن عبد الله القضاعي، ديوان ابن الأبار، تحقيق عبد السلام الهراس، الدار التونسية للنشر، تونس، الطبعة الثانية، 1986، ص250. 16- ابن فرحون، إبراهيم بن علي بن محمد، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تحقيق محمد الأحمدي، دار التراث للطباعة والنشر، القاهرة 1972، ص277.
- 17- ابن الأبار، التكملة لكتاب الصلة- تحقيق عبد السلام الهراس، دار المعرفة، الدار البيضاء، د.ت، ج2، ص103. 18- يحيى بن خلدون، بغية الرّواد، ج1، ص204. 19- نصر الدين بن داود، مرجع سابق، ص31. 20- ابن خلدون، المقدمة، ص389. 21- ابن خلدون يحيى، مصدر سابق، ص130. 22- نصر الدين بن داود- مرجع سابق، ص126. 23- ابن خلدون، المقدمة، ص493. 24- نفسه، ابن خلدون ورحلته، ص48.
- 25- التنبكي، أحمد بابا، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، عناية وتقديم عبد الحميد عبد الله الهرامة، الطبعة الثانية، منشورات دار الكتاب، طرابلس، 2000، ص245. 26- المقرئ، أحمد أبو العباس، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكروزيها لسان الدين ابن الخطيب- تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968، ج5، ص394. 27- التنبكي، مصدر سابق، ص291.
- 28- ابن فرحون، مصدر سابق، ص429/ ابن مريم، مصدر سابق، ص223. 29- التنبكي، كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، دراسة وتحقيق محمد مطيع، وزارة الأوقاف والشؤون الاجتماعية، المغرب، 2000، ج1، ص264. 30- ابن فرحون، مصدر سابق، ص429.
- 31- مخلوف محمد بن محمد، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، (د.ت)، ص220.
- 32- ابن القاضي المكتاسي، أحمد، جذوة الاقتباس في ذكر من حلّ من الأعلام بمدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1973، ج1، ص97. 33- ابن مريم، مصدر سابق، ص136/ التنبكي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، ص53.
- 34- القلصادي أبو الحسن علي الأندلسي، رحلة القلصادي، دراسة وتحقيق محمد أبو الألفان، الشركة التونسية للتوزيع، 1978، ص108.
- 35- الونشريسي، أحمد بن يحيى، وفيات الونشريسي، تحقيق محمد بن يوسف القاضي، شركة نوايف الفكر (د.ت)، ص90.
- 36- ابن مريم، مصدر سابق، ص353/ الحفناوي أبو القاسم محمد، تعريف الخلف برجال السلف، مطبعة الجزائر، 1906، ص230. 37- نقلا عن ابن مريم، مصدر سابق، ص353. 38- القلصادي، مصدر سابق، ص108.
- 39- التنبكي، كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، ج2، ص156. 40- المقرئ، مصدر سابق، ج1، ص221.
- 41- التادلي ابن الزيات أبو يعقوب يوسف بن يحيى، التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، تحقيق أحمد التوفيق، الطبعة الثانية، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1997، ص92.
- 42- ابن مريم، مصدر سابق ص222/ ابن خلدون، ابن خلدون ورحلته، ص47. 43- ابن مريم، مصدر سابق، ص228.
- 44- التنبكي، نيل الابتهاج، ج2، ص291. 45- ابن خلدون، المقدمة، ص143.
- 46- علياء هاشم ذنون محمد المشهداني، فقهاء المالكية- دراسة في علاقاتهم العلمية في الأندلس والمغرب حتى منتصف القرن السادس للهجرة/ الثاني عشر للميلاد، أطروحة دكتوراه في التاريخ الإسلامي- جامعة الموصل سنة 2003، ص127.
- 47- الونشريسي- المعيار المغرب و الجامع المغرب عن فتاوى علماء افريقية و الأندلس و المغرب، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1981، ج6، ص361. 48- المصدر نفسه، ج12، ص333.
- 49- ابن مريم، مصدر سابق، ص224/ التنبكي، نيل الابتهاج، ج2، ص245. 50- نصر الدين بن داود، مرجع سابق، ص247.
- 51- ابن خلدون، ابن خلدون ورحلته، ص47. 52- نفسه/ ابن مريم، مصدر سابق، ص227. 53- ابن خلدون، ابن خلدون ورحلته، ص47. 54- نفسه. 55- التنبكي، كفاية المحتاج، ج2، ص156. 56- نفسه. 57- نفسه. 58- نفسه.
- 59- ابن مريم، مصدر سابق، ص223. 60- نفسه.